كعادة مؤلفي القصص و كاتبي الروايات نبدأ بالمُقدمه الشيقه ولكن.. هذه القصة تختلف سنبدأ بالنهاية أولاً و عسى ألم البداية أن يختفي إلى الأبد

ـ لو لَمْ ـ

لو لَمْ ألمِحك مِن البداية لكُنت أنعم براحة البال في سفري

هذا ولكن لعَّنك الله.

أبغض طيفك ذاك الذي يطوف حولي، و الله لو ذنب أنتِ

لتُبتَك

أنتِ وَشم وُشم بالنار لا تَمحيه آثار الزمان، ولا عويل

السنوات

كالشيطان أنتِ زين شجرة الخُلد لعبد الله آدم عليه السلام و

لكن شجرتِك كانت تُثمر كبرياء وغطرسةٍ..

وقعت في فخِك وأنا مؤمِن

أُحبك.. و أكرهك..حد السماء

لو لَمْ أكُن شهم لهذه الدرجة لو لَمْ أكن رجل..

———————

الفصل الأول

فيلا مالك بِك

——

في تمام الساعة السابعة عشر[1] أقدام تركُض و صُراخ يعلو في طُرقات فيلا مالك بِك ، أزيز أبواب المدخل و سيارات شُرطة و إسعاف تتقدم واحدة تِلو الأُخرى

حشد في ساحة المدخل تقدمهُ مالِك بِك الكبير يستقبل اليوزباشي حكيم [2] بعدما أرسل إشارة للعساكر بالدخول للفيلا

---

[1] الخامسة بتوقيت الإثني عشر
[2] رنبة نقيب

بدأ اليوزباشي بالتحدث:

-مالِك بِك كيف علِمتُم بالواقعة ؟ مَن كان متواجد وقتها معهُم؟

رد مالِك بِك الكبير

- كان الجميع بالحديقة إلا أميراس ابنته

مِن عادات عائلة مالِك بيك الكبير اجتماعهم يومياً للتحدث بشئون العائله الكبير مِنها و الصغير , عن أعمال العائلة تجارة الأخشاب و الأثاث العتيق ,و من سيرِث العمل بمسمَع الجميع

كان مِن العائله أطفال عاصِم بِك_ ابن مالِك بيك الكبير_ سديم و ظافر لطالما كان يقسو عليهِم خصوصاً ظافر كونه من سيرث تجارة العائِلة و سيمد في إسم العائلة

كان ظافر ذا الحادي عشر مِن العمر يعرف من اللغات خمسها الإنجليزيه و الفرنسيه و الإيطاليه و الأسبانيه و الروسيه و يدرِس مِن عادات الشعوب أقيمُها و أرقاها

كانت والدته تحرص على تعليمه ,كأنه يُهيأ لشئ أكبر مِنهُ و على الرغم مِن صِغر سِنه وضعف جسده ,إلا أنهُ امتلَك مِن الشجاعة ما يُعادل الرِجال المُحاربين

كانت تحرص والدته ريحانه دائماً على متابعة تعلمه

على الصعيد الآخر، أُخته سديم[3] لطالما كانَت هادئه رذينه في أفعالِها تتخذ من عقلها درع لها.

في يوم من الأيام المعتادة و إجتماعاتِها سمِع الجميع صُراخ مِن داخِل الفيلا

انتفض الجميع , اندفع الرِجال للداخل و على رأسَهم مالِك بِك الكبير , ما أن فتحوا باب الفيلا الأمامي حتى وجدوا...

ريحانه هانم و نوح الخادم على الأرض منحورين و الدماء مِن حولِهم كمن وكأنهم كانوا يسبحون بِها

صرخ الرجال و هَموا بإبعاد الأطفال حتى أتت..

-أبي أبي لا.. اتركوني.. دعوني أبي أبي

[3] الظل الخفيف

قيدها مالِك بِك الكبير من الخلف:

-" اهدئي يا أميراس"

أخرجها مع الباقيين لتُهدئها النساء بالخارج العاملات و الأمهات

———

ماذا رأيت..

———

خرج الجميع مِنهم الواقع تحت وطأة الصدمه , الباكي منهم و الصارخ ,همسات نميمه , ولم يعبأ أحد بالآخر..

ظل ظافر أمام الجثتين الملقيين على الأرض ينظر لطريقة هدوئهما و الدم على رقبة كل مِنهُما، نعم!! إنها والدته تِلك المنحورة على الأرض

لكنه كان حريص على ملاحظة كُل شئ بهدوء بعيد عن ضوضاء العائلة الصاخبة بالخارج ,تماماً كما علمته والدته

لحِظ ورقه بيد والدته فنَزعها فوراً و احتفظ بِها في جيبه قبل أن يراها أحد، حتى سمِع صوت سارينة الشرطه و أجراس الإسعاف و اقدام كثيره تركُض قادمه..ألقى نظرته الاخيرة على والدته مُخلفاً وعداً واجب النفاذ

إختبأ سريعاً خلف أحد جدران السلالم المؤديه للطابق العُلوي، حاول رؤية أي شئ و لكن خوفه مِن أن يُلاحظ أحدهم وجوده مَنعهُ مِن التحرُك

سَمِع صوت ضحِكات يألفها و تحَرُك شئ ثقيل على الأرض الخشبيه شعر بِتحركها تحت قدميه و كأنها خزانه أو ما شابَه، و عادت الأقدام في الركض مره أُخرى..

حينها عزم على التحرك مِن موضعه تمامً مع دخول عساكر لموقع الجريمة

و لكن فُضوله دفعه للإتجاه للطابق العُلوي مرة اُخرى لرؤية ما يحدُث و لـكِنه لم يجد إلا جُثه واحده فقط مُلقاه وهي جُثة والدته ريحانه.....

.

.

-"أين جُثة نوح الخادم؟!" أخذ يتسائل و هو موقِن مما رأى بأُم عينيه الإثنين على الأرض أمامُه

رآه أحد العساكر و دعاه للنزول مِن مكانه وحادثه بهدوء

-"ما اسمُك؟"

-"ظافر"

-"هل رأيت ما حدث؟ "

-"لا.. لاا نعم.. لا.." (كاان ما بين نعم رأيت و لا لم أرى)

-"إهدأ يا ظافِر تعال لنخرُج مِن هُنا"

خرج الإثنان مِن مبنى الفيلا و ظافر ينظر لجُثة والدته ريحانه يودِعُها و يتحسس الورقة في جيبه ليتأكد من وجودها

سأله العَسكري عَما رأي ، رد بإندفاع رأيت جُثتين أحدُهما لوالدتي و الأُخرى لنوح الخادم..

حينها ظهرت أميراس مِن خلفُهما تسترق السمع.. لاحظها ظافر و دعاها لحديثه مَع العسكري

-"إنهُ والدُها نوح.. أخبريه!!.."

-"عن ماذا ؟! "ردت أميراس بهدوء" استعجب مِنهُ ظافر، ألم تكُن تصرُخ مِن قبيل الدقائق ماذا حدث؟

-"أخبريه عن والدك ألم يكُن مُلقى هُنا !!بجوار..." قاطعته أميراس

-"حضرة لا دخل لي بشئون الفيلا هكذا قيل لنا" وانصرفت

بدأ ظافر يصرخ بالجميع عَل أحدهم يؤَكِد كلامه و لكن بائت مُحاولاته بالفشل

ترك كُل شئ يسري كما هو مُعتاد في مِثل تِلك الأمور و كان يُحاول إلتقاط أي شئ غريب و هو كذلك...

____

المُحبب عادل بيك

______

بعدما هدأت الأجواء و جمع العساكر ما يكفيهم من الأدلة و الأقوال من سيدات الفيلا و ساداتها حتى رحلوا

بعد مرور الإسبوع

في حجرة الضيوف و حول طاولة خشبية أرجلها مزخرفه و مطعمه بالعاج و عليها تمثال حصان و شعره كأنه يحترق يقف على أرجله الخلفية

تواجد عاصم بيك على احد كراسي الغرفة المدهبه والتي تحمل تصميم كتصاميم الملوك قديماً، و بيده سيجار بني اللون على وشك الإنتهاء قطع تفكيره دخول أخيه

-"ظنَّك لمَّ يُخفي الجميع الحقيقه و كُلنا رأيناها بأُم أعيننا"

تحدث عادل بِك

رد عاصم بِك و رُسمت على وجهه ضحِكه خبيثه

-"ما زلت صغيراً يا عادل لن تفهم أبداً" (و هو ينفث دخان السيجار)

-"أفهم ماذا زوجتك نُحرت وأنت تضحك!!؟" (عدل عن مقعده)

قطَّب عاصم بِك ما بين حاجبيه و أطلق زفيراً ممزوج برائحة الدخان من السيجار البُني بين يديه

-"عادل لا دخل لك بما يحدث دعَك عن أمور الكِبار و كُن كلب مالك بِك المُعظم المُدلل فقط"

لم يكن من طبع عادل بِك الغضب السريع أو التطاول على أحدهم ناهيك أخيه الكبير

-"لعل ما حدث ليس له تفسير بعد.. و لكن يدك المُلوثه بالدماء تِلك لا استبعدها حتى عن زوجتك"

انفجر عاصم بِك و هَب لعُنق أخيه خانقاً، لم يفصلهم ذلك إلا صُراخ ظافر العال:

-" اترك عمي.. اترك عمي.. دعه"

فك عاصم بِك وثاق عادل و حذره بعينين تكاد تخاف مما ورائهم بعدم المساس بشئون الكبار مره أُخرى و انصرف..

.

.

ظل ظافر مع عمه عادل بِك القليل مِن الوقت ليطمئن عليه و يحادثه بشأن تِلك الجريمة و هو يحتسي عصير الليمون الذي أعدته أميراس لتهدئته

عما رأى و عن نظرات أميراس و حديثها

-"عمي أنت بخير؟!"تحدث ظافر

-"ظافر جئت بالعائلة الخطأ" وهو ينظر بشفقة عَلّه تذكر نشأته و كيف كان يُعامله أخيه و السيدات بالفيلا و لم ينتشلهُ مِن تحت أسنان الذئاب سوى نفسه التي أصرت على عدم الإقتحام بشئون أخيه القذرة

-"عمي أنا ايضاً رأيت شئ" تحدث ظافر

-"ظافر في هذه العائله تعلّم البحث بمفردِك عن الحقيقه، الجميع رأى الجثتين و لكن لشئون و مقام العائله وسمعتهم المُبجله يرفضون القول عن الحارس أيضاً" (و هو يعبث في الهواء بيده كالبهلوان)

-"لكن أين اختفت جثته رأيتها بعيني عندما اخذت الور..."

كاد ظافر أن يُخبر عمه عادل بِك بالورقه في يد والدته

ريحانه و لكنه تذكر فوراً

و عدل عن حديثه و لكن عمه قاطعه

-"لو أني بالسن القانوني بعد لأنفصل مادياً عنهم ,ولكن إن

تحركت خطوه مِن هُنا سأموت جوعاً "

لم يكن عادل وصل للسن القانوني بعد الذي يدفعه بفصل

إشراف أخيه على ميراثه و ممتلكاته

ساد صمت في تلك الغرفة قرابة الخمسة عشر دقيقة كلما

امتلك احدهم فكره للحديث انسحب كاتما إياها حتى قطع

صمتهم دخول إميراس بنقر الباب الزجاجي للغرفة

-"الطعام جاهز بغرفة الطعام الآن تفضلوا"

———

طاولة الغدر

———

كانت أميراس التي تسبق خطواتهم, بسن ظافر تقريباً كانت تصغره سنتين و لكنها امتلكت من مقومات المرأه ما يجعلها في العشرين أو ما شابه

ومع النظرات الخاطفة لظافر و أميراس تنظر عن كتفها الأيسر للخلف بإبتسامه ، تلقى ظافر لكمة على مؤخر رأسه من عادل

-"إحترم نفسك! و انظر للأسفل"

على الرغم من تنبيه عادل له إلا أنه لمح ضحكات أميراس

على تلك الصفعه و ضحك هو الآخر

فُتحت أبواب غرفة الطعام من قبل الخدم و دخل كل من

عادل و ظافر مع تعليق عاصم

-ا"حموا اطباقكم ها قد اتت الكلاب "

رمقه عادل نظره وكأنه يرسل شكل عاصم المقتول من

عينيه

ضحك عاصم ضحكه خفيفه بشفتيه البـُنيه نتاج نيكوتين

السجائر ضحكه خبيثه

نظر مالك بِك الكبير و أومأ برأسه كنايةٍ عن عدم إعجابه بما

يحدث و أشار بيده لهم للجلوس

جلس الجميع و بدأوا بتناول الطعام فور بِدء مالك بِك الكبير الذي تكاد من طعن سِنه تتسائل, كيف لرجل في أواخر التسعينيات أن يمتلك كل تلك القوة حتى لرفع معلقة؟!حتي تناول الطعام؟!

-"عادل كيف العمل بالمصنع" تحدث مالك بِك الكبير

-"جيداً جداً, ولو أني أرى أننا نحتاج لبعض التغييرات فالعالم من حولنا يتغير"

قاطعه مالك بِك الكبير...

-"عشت طوال عمري أحمي ميراث العائلة و عملها فليمت العالم تغييراته، لن أغير إصبعاً من أعمالنا"

وبدأ يسعل كأن هناك ما يخنقه انتفض الجميع ليناوله أحدهم كأس ماء أو التربيط الخفيف على ظهره أو تحريك الهواء من حوله .

حتى وقع وجهه على الطاوله , كانت شفتاه مدهونه باللون الأزرق و عيناه جاحظتان تنظران لشئ أو شخص

صرخت السيدات مما دفع الرجال لإخراجهم من الغرفه و محاولة إفاقته، و أسرع ظافر لطلب الإسعاف

لكنه بالفعل قد مات..

ظل ظافر مكانه ينظر من حوله , يتسائل ماذا حدث!! و ماذا يحدث لتحل اللعنة على تلك العائلة كذلك؟!!

أولاً موت والدته واختفاء جثة الخادم نوح, ثانياً موت جده بطريقه غريبه من بينهم لحظه..

-"هل ممكن أنه مات من اشتعال الغضب في عروقه؟"

تسائل بصوت تكاد تسمعه حتى أتاه الرد

-"نعم عادل هو القاتل"

من الخلف عاصم بِك ينظر لظافر و عيناه الغائره تلمع كأنه وجد كنز ما

وضم ظافر له..

-"لطالما علمت بأنك ذكي، تربية والدتك "

تذكر ظافر والدته في تلك اللحظه والورقة التي كانت بيدها , اشتعلت في ذهنه فكرة النظر لها اخيراً بعد مرور كل ذلك الوقت .

بالفعل أتت الإسعاف و طبيب العائلة الذي أكد عدم موت مالك بِك بطريقه طبيعيه و أن هناك عامل خارجي ساعد في موته خصوصا و أنه كان يتابع حالته الصحيه و يؤكد أنه لا يمكن أن يموت لمجرد الغضب إنها شُبهة جنائية بلا شك

ترك ظافر الجميع و قفز لغرفته..

في الطريق لغرفته قابل أميراس التي كانت تنفض عن الحائط غبار أثارته رياح البارحه؛ و الشمس تلمس عينيها

اليمنى لتُظهر اللون الأخضر بهم و شعرها الأصفر يضيء نكحصل من الذهب و ذلك الفستان الوردي الذي يليق جيدا بمفاتنها

تبسم لها وردت هي الأخيره و هي تحرك تلك الخصل وراء أذنها..

ما أن دخل غرفته ووضع الورقة بيده سمع نقر على الباب

-"تفضل "(وهو يخبئ الورقة في جيبه)

-"أهلاً ظافر هل أعد لك شيئاً تشربه ليهدء أعصابك بعد تلك الليله العصيبة" تحدثت أميراس

-هلا بقيت قليلاً أتحدث معك

-طبعاً في أي وقت ، كانت ستجلس على الأرض و لكن تمسك ظافر بيدها و منعها , أخبرها أن تجلس بجانبه , أخذ بعدها بالحديث عن صعوبة تصديق ما يحدث و عن اشتياقه لوالدته و كيف أنها تذكره بها كثيراً و جده الذي شعر و كأنه ينظر لشئ ما.. كأن عينيه... تخفي الحقيقه...

وهي تمسح على شعره الناعم ..

-"لا تقلق يا ظافر كل شئ سيكون بخير" بدأت بتحريك خصيلات شعره ذهاباً و إياباً و تحرك قلبه مع تلك الأصابع

سحب يدها و طلب منها القدوم معه للسندره حيث مكانه المفضل و سماع أغاني العظام بهدوء

تسلل الإثنان للسندره وهم يلتفتون من حولهم و يركضوا و ضحكات وجههم تعلو بصوت مكتوم

حتي وصلوا مكان يملأوه الغبار من كل مكان و العديد من الكراسي العتيقة ذات الطراز القديم و جهاز فونك[4] و جهاز جرامافون وأطنان من الإسطوانات الكبيره المغلفة و مكتبه خشبيه كبيره بها ضلفتين مكتوب على أحدهما "استمع" و الأخرى "يوحى"..

[4] كان يستخدم قديماً في تسجيل شرائط الجرامافون

اخذ ظافر قرص كبيره ووضعه بالجرامافون ,وضع إبره بيد الجهاز و أدار اليد الأخرى ليصدر صوت عذب من داخل مكبر الجرامافون يغني

كان الصوت ينساب من مكبر الجرامافون كأنه يسرد حكاية قديمة لا تنتهي، والغبار يرقص في الضوء كأرواحٍ صغيرة تقفز من الماضي.

جلس ظافر على الأرض وأسند رأسه إلى الحائط الخشبي، وأميراس إلى جواره، تقلب إحدى الإسطوانات ببطء وكأنها تتفحّص جزءًا من ذاكرتها.

قال بصوت خافت:

- "كلما جئتُ إلى هنا، شعرتُ أن أمي لا تزال قريبة...

كأنها تراقبني بصمتٍ من بين هذه الكتب، من خلف هذه الأصوات."

لم تُجِب، بل اكتفت بنظرةٍ مطوّلة نحو وجهه، ثم همست:

- "أحيانًا، لا تراقبنا الأرواح... بل تنتظر أن نكتشف شيئًا... أن نُتمّ رسالة لم تكتمل."

نظر إليها بتساؤل:

-"أهكذا تؤمنين بالأرواح؟"

ابتسمت بحزن وهي تضع الإسطوانة جانبًا:

- "أؤمن أن من يموت، لا يرحل حقًا... بل يبقى حيث تُحفظ الأسرار."

سكت للحظة، ثم قال:

- "أشعر أن هناك شيئًا يُخفي نفسه في حياتي... ليس فقط موت أمي، بل شيء أقرب، أخطر... وأنتِ..."

ارتبكت، لكنها حاولت السيطرة على تعبير وجهها:

- "أنا؟"

اقترب منها قليلًا، نظر في عينيها:

- "أشعر بشيء داخلكِ... كأنكِ لستِ فقط أميراس التي أعرفها، بل شخص آخر... تحملين سكونًا يشبه الخوف، وكأنكِ تنتظرين أن يحدث شيء فاصل."

سكتت، يداها ترتجفان فوق ركبتها، ثم قالت بهدوء:

- "وأنت أيضًا يا ظافر... منذ عُدتَ من المقبرة، لم تعد كما كنت. عينك تغيّرت... حتى صمتك."

ابتسم بمرارة، وقال:

- "ربما لأنني بدأت أرى الحقيقة... لكن لا تقلقي، لستُ بعدُ مستعدًا للرحيل."

ثم قام من مجلسه، اقترب من المكتبة، ووضع يده على ضلفة "استمع"... لكنّه لم يفتحها.

قال دون أن يلتفت:

- "هل تسمحين لي أن أريكِ شيئًا غدًا؟... شيئًا أظنه سيغيّر كل شيء."

نظرت إليه أميراس في صمت، قلبها ينقسم إلى نصفين،

أحدهما يتذكّر المهمة ، والآخر... يرتجف من فِعلتها القادمة.

هروب الدليل

كان صوت المطر يطرق زجاج النوافذ بعنف، كأنه يفضح ما يدور في الداخل.

وقف عاصم بِك أمام المدفأة محدّق في النار، ويداه خلف ظهره، بينما وقف ظافر على بُعد خطوات، يتأمل ملامح والده.

قال عاصم بنبرة غليظة:

- "عمّك عادل... هرب."

ارتفع حاجبا ظافر بدهشة:

- "هرب؟! متى؟"

- "منذ أربعة أيام. ترك غرفته، أوراقه، حتى ملابسه. لا أثر له. والأنكى... أنه فكّ الوصاية اليوم الذي سبق هروبه مباشرة."

تقدّم ظافر خطوة:

- "ولماذا قد يهرب؟!"

دار عاصم بِك ناحيته، عينيه شعلتي نار:

-"لأنه ضعيف، أحمق... وسمع كلامًا لا يخصه."

ابتلع ظافر ريقه، ثم قال:

-"كان دائمًا ينصحني... أن أبتعد عن العائلة."

صمت المكان للحظة.

اقترب منه عاصم، ووضع يده على كتف ابنه وقال بهدوء مصطنع:

- "لا تستمع لمن هرب، يا ظافر. من يهرب لا يحمل الحقيقة، بل الجُبن."

لكن ظافر لم يرّد.

في نفس الليلة، تسلل إلى غرفة عادل وبدأ يفتش بين الأدراج القديمة.

وجد دفترا صغيرًا، لم يحمل اسمًا، لكنه كان مليئًا بكتابات غير مكتملة ورسومات مكررة لبابٍ مغلق، وكلمات مبعثرة:

"الفيلا تخفي أكثر مما تُظهر... هناك من مات ولم يُدفن..."

وفي الصفحة الأخيرة، كتب بخط واضح:

"حين تقرأ هذا... أكون على الأرجح في فرنسا."

علم ظافر فوراً أن تلك الكلمات و الرسومات لم تكن إلا له من عمه عادل

أغلق الكتاب و عقد عزماً على الرحيل السريع فور وصوله السن القانوني هو الآخر لم تفصله سوى ، ثلاث سنوات لذلك

و خلالهم سأسعى لمعرفة الحقيقة...

____

رسالة مخفية

____

خلال السنوات الماضية كان ظافر يدخل السندره للّهلو مع أميراس حتى يحين موعد الغداء.

ما أنساه رسالة والدته ريحانه هانم...

في الليل..

صراخ صرصور الحديقه , صوت وريقات الشجر تتحرك مع الرياح و صوت مفصلات باب ظافر الذي يُفتح

عازماً على قراءة رسالة والدته بهدوء بعيداً عن أنظار ذئاب الفيلا..

وصل السندره بعد صِراع عدم إصدار صوت من الأرضيات الخشبية، أسند ظهره للحائط ليستريح من مشقة الإختباء، سحب ركبته اليسرى عليه و فتح الورقه...

وجد.. الآيه "**و أنا اخترتُك فاستمع لما يوحى**"...

-"لم قد تضع أُمي تلك الآيه بيدها! (و هو مقطب بين جبينه تعجُباً) أعلم جيدا حرصها لي على حفظ سورة طه، لكن لِم تكتُب تِلك الآية بالتحديد"

ظل يتفحص الورقه من الأمام والخلف أو لربما الورقه تحوي بينها شيئاً مخفي؛ و لكن لا إنها ورقة واحدة فقط و بها الآية..

و هو يبحث بعينه حول نفسه متسائلاً حتى ما وقعت عينيه على المكتبه الخشبيه المحفور على أحد أبوابها" استمع " و الأُخرى" يوحى"

قفز من مكانه و بدأ يستشعر الكلمات المحفورة و ينطقها بهدوء..

-"اس ت م ع ، ي و ح ى.."

لربما هناك شيء مخفي بأبواب المكتبة, لكم الباب بيديه الصغيرتين عدة مرات حتى نزفت يده من مفاصلها الدماء، انفلق الباب لكن أيهم لم يحوِ شئ

-"اهدأ يا ظافر.. إهدأ" (ظل يزفر و يشهق الهواء من حوله)

-"ماذا إن وُجد قرص به عنوانه (لما)" (تسائل وكأن شعلة أضاءت فوقه للحظه)

بعثر الأقراص و فتش بداخلها و خلفها حتى وجد قرص كبير على غلافه "لِما"

اندفع للجرامافون وهو يبتسم ويتعثر بقدميه مِن الفضول ماذا قد يوجد بالداخل، سجلت انا و امي العديد على جهاز الفونيك و لكن لم ألحظ ذلك القرص مِن قبل

وضع ظافر القرص بسرعة بجهاز الجرامافون و الإبره باليد وأدار اليد الأخرى....

...

(ولدي ظافر كنت أعلم يقيناً بإمكان الإعتماد عليك.. أنا سعيدة الآن أنك استطعت فك اللغز..

إن كنت تسمع صوتي الآن فأنا إذا لم استطع الهروب سأكون ميته..

ستجد مستندات تدين عاصم ، حبيبي أنا لم أخُنه يوماً و لم أنو.. على الرغم من خيانته المتكررة لي..

نفس طويل...

هذه العائله تقتل من يعلم الحقيقه.. و تذكر ولدي ظافر دائماً قول الله عز وجل

{من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً}

كُن خادم الجميع واحتفظ بكرامتك ولكن إياك التكبر والغرور.. أنت لست مثله يا صغيري و أعلم أنك لن تكون)

..

في صمت كاد يخرق صدر ظافر و إذ بصوت والدته ينبعث بحنانها المُعتاد لم يكن يعلم أعليه أن يضحك أم يبكي أم يجري ليخبر أميراس بما وجد؟!

في كل كلمه كانت تقولها ريحانه كان يفتح عيناه من الصدمه , حتى وصل لذكرها الخيانه..

ظل يضرب بيده على وجهه و صدره بقوه لكمات كادت تفقده وعيه و هو يصرخ و يبكي من ندمه على اتهامها كونه سَلم لحديث الجميع عن كون أمه خائنه ..

و بكاءاً على فقدانها و بكاءاً على وحشتها..

حتى انتهى التسجيل كان ظافر على الأرض مغشى عليه , تكاد تشعر بحريق صدره كأن العاديات[5] التي يحترق صدرُها من الركض.

تستطيع تستشعر حرارة النيران الموقده في صدره

سقط على وجهه ساجداً باكياً كان على الرغم من عمره السابع عشر إلا أنك تراه أمامك طفل رضيع يبكي يحتاج لحُضن والدته ينتشله من ذلك العالم الموحش الذي وجد نفسه بداخله فجأه وحيداً

سقط على جنبه و ركبتيه تحتضن صدره ظل يبكي حتى أُغشي عليه

لم يستيقظ إلا باليوم التالي ..

[5] الخيول التي تهرول سريعاً

استيقظ ظافر في اليوم التالي على صوت طرقات ناعمة على الباب، لم يدرِ كم مرّ من الوقت ، شعر بجسده مُثقل كأن كل خلية فيه بكت معه الليلة الماضية.

فتح عينيه ببطء ، والجهاز لا يزال يعمل ، والإبرة تدور في اللا شيء ، كأن الزمن عالق على ألم واحد لا ينتهي.

نهض بتثاقل ومسح وجهه من دموع جفّت على خده ، ونفض الغبار عن نفسه ، رأى بجانبه القرص الذي حمل صوت أمه... كأنها كانت هناك ، تجلس إلى جواره ، تحنو عليه كعادتها ، وتغرس فيه وصاياها كمن يزرع شجرة في صحراء.

فتح الباب فإذا بـ أميراس تقف بقلق واضح في عينيها.

قالت بصوت خافت:

- "طرقت الباب مرارًا... سمعتُ صوتًا غريبًا ليلًا... هل أنت بخير؟"

لم يُجِب، نظر إليها طويلاً، ثم أفسح لها المجال لتدخل.
أشارت إلى جهاز الجرامافون وسألت:

- "ماذا يحدث؟ أكان... تسجيلًا؟"
أومأ برأسه ، وجلس على الأرض حيث كان.

قال بصوت منهك:
- "إنه صوت أمي... تركت لي هذا التسجيل، كانت تعلم أنها قد تموت."

صمت قليلًا، ثم تابع:
- "قالت لي كل شيء... عن والدي... عن خيانته... عن من قتل، ومن صمت، ومن زور الحقيقة. لكنها أوصتني... ألا أكون مثلهم."

جلست أميراس أمامه ، بعينين ممتلئتين بالدهشة والارتباك، ثم قالت برقة:
"وماذا تنوي أن تفعل بتلك المستندات ؟"

نظر إليها بعينين متسعتين كأنهما عادتا من بُعد لا يُقاس ، وقال:
-"سأبدأ من جديد... سأكشف الحقيقة ، ورقةً بعد ورقة. سأفضح من ظن أن الصمت نجاة ،
حتى و إن كان عزيز..

من لبس قناع الطُهر وهو غارق في الوحل.
لكنني... **لن أتلوث مثلهم.**"

وضعت يدها برفق على كتفه، وقالت:
- "أنا معك... إن احتجتني، حتى وإن لم تفهمني... حتى إن كنت جزءًا من صورة آلمتك."

التفت إليها فجأة، كأن نغمة في صوتها أيقظت شيئًا خامدًا في داخله.
حدّق في عينيها طويلًا ثم قال ببطء:
- "أكنتِ تعلمين؟"
نظرت هي الأخيره في عينيه المتورمتان من بكاء الأمس :
-"دعك من ذلك الآن ستعلم كُل شئ في وقته"

نظر بغضب إليها لم تعهده منه و تمسك بكلتا كتفيها بشده و كأنه يخاف علي مُجرم من الهرب

صاحت أميراس :

-" دعني ظافر إنك تؤلمني بشده "

تنبه ظافر لما فعله فور ما سحب يديه عنها حتى وجد علامات يديه منقوشة باللون الأحمر عليهما .

انطلقت للخروج من السندره وهي تبكي مُندفعه كالسهم , و تركت ظافر الواقف مع وقوف الزمن من حوله عند كلمات والدته وكأنه لا يريد للزمن أن يمُر لحظة

(رغبة الهروب)

في السندرة ومع مساءٌ يختلط فيه السكون بأنفاسٍ متشابكة جلس أميراس و ظافر ,جلسا جنبًا إلى جنب تحت ضوء خافت ينبعث من مصباح صغير معلق في السقف

تتراقص ظلالهم على الجدران العتيقة. كانت "السندرة" ملاذهم الأخير، بعيدًا عن ضجيج الشك والخذلان.

مدّ ظافر يده إلى الجرامافون القديم، وأدار قرصه بلطف، فتسلّل صوت ناعم قديم، فيه حنينٌ لا يُقال.

لم تُذكر الكلمات، لكنها كانت كافية لتحمل أرواحهم بعيدًا... حيث لا أب يراقب، ولا ماضٍ يتربّص.

مدّ يده إليها، ونظر في عينيها طويلاً وقال بصوتٍ خافت:

-"ارقصي معي، ولو لدقائق... دعيني أصدّق أننا بخير."

وقفت لكنها تردّدت قليلاً، ثم وضعت يدها في يده.

كانت خطواتهما هادئة خفيفة، كأن الأرض نفسها قررت أن تصمت احترامًا لما بينهما.

يداه على خصرها ويديها على كتفيه، وجسدان يتهامسان بصدقٍ لا يجيده الكلام.

قال بصوتٍ مكسور، فيه أمل:

-"أنا أحسب الأيام... لا أريد من عمري إلا تلك اللحظة التي أصل فيها لعشرين عاماً... وأهرب بكِ. أحرّرك من كل هذا. من أبي، من ماضيك، من كل شيء. و أُحرر نفسي معك".

ابتسمت أميراس، لكن عينيها تذكرت شيئاً وحدها تعرفه وهمست:

- "إلى أين؟ فرنسا مثل عمّك؟"

اقترب منها أكثر، وتناغم جسده مع الموسيقى:

-"أنتِ اختاري... أنتِ كل اختياراتي.أينما كُنت فهو مكاني"

صمتت، ثم نظرت إليه بعمقٍ لا يخلو من رجفة:

-"أريد أن أذهب إلى المدينة المنوّرة... أزور أرض الطمأنينة. لا أهرب من العالم، بل أهرب إلى السلام."

وقبل أن يردّ، جاء الصوت من الطابق السفلي، حادًّا، خشناً قطع الهواء :

-"ظافر! تعال حالًا."

توقّفت الموسيقى، تجمّد الزمن، وارتبكت أنفاسهما... سحب يده بهدوء، ثم قال:

-"لا تخافي... سأعود."

مكتب عاصم بِك

دخل ظافر الغرفة، كان أبوه واقفًا أمام النافذة، يدخّن سيجارته الثقيلة، والظلام يغلف زوايا المكان.

لو رأيته حسبته مُنبث من لوحة زيتية عنوانها الرُعب

لم يتكلّما في البداية.

أدار الأب رأسه، ورآه واقفًا ينظر إليه بنظرةٍ جامدة، ساخطة، فيها لهيبٌ مكتوم.

ترى في عينيه الذئب المُنقض على فريسته فيهما.

اقترب منه، ثم بصق كلماته:

-"نظراتك هذه... تماماً كنظرات أمك قبل أن..."

صمت فجأة، ثم اندفع بيده، وصفعه صفعة دوّت في المكان.

-"هل نظرت في عينيك هكذا أيضاً... وماذا فعلت بها؟"

بغضب يخيف الهواء و الأثاث من حولهم

قالها ظافر، والدم على طرف شفاهه.

تجمّد الأب، ثم دفعه بقوّة حتى ارتطم بالحائط.

صرخ فيه:

-"اغرب عن وجهي! لا أريد رؤيتك. انصرف"

خرج ظافر من الغرفة، يمشي والدم يغلي في عروقه يتزايد حدته.

وقبل أن يخرج من المكتب ، توقّف.

عيناه وقعتا على المكتب...

ملف قديم، مكتوب عليه بخط كبير: "الكيميائيات."

..

الخيط الأول

كانا يجلسان سويًّا على الدرج المؤدي للمكتب. أميراس وضعت وشاحًا أسود على وجهها، لم ترد أن يراها أحد.

همست:

-"الموضوع خطر يا ظافر... دعنا نتراجع."

قال بثقة:

-"لم آت لأُجرب حظي... أنا بالفعل سآخذ الحقيقة. ومعي خطة لذلك."

أخرج مِفكًا صغيرًا من جيبه، ودخل إلى الغرفة بعد أن تأكّد من أن الجميع نائم.

فتح الباب... ودخل.

فتحت أميراس الباب قليلًا لتراه وسط الظلام يتفحّص الأوراق على عجل. فجأة توقف.

ملفٌ داخلي، عقود الصفقات كيماويات.

أدوية منتهية الصلاحية، مختومة بختم مزوّر.

ثم...

ورقة صغيرة... بخطّ رقيق.

"أتنازل عن حقي في الميراث لصالح ابني ظافر."

التوقيع: ريحانه هانم.

قرأها... ولمعت دمعة في عينيه.

قبض عن غضب أحرق روحه دوناً عن جسده

أغمض عينيه ، وأخفى الورقة في سترته.

" فلتبدأ اللعبه الحقيقةٍ إذا يا بِك ."

ندبة الصمت

خرج ظافر من المكتب بخطوات متسرعة، عينه تبحث وتهمس، نبضه يزداد توترًا.

لم تكن أميراس في مكانها.

تلفّت حوله، نادى باسمها همسًا مرتجفًا، صعد إلى "السندرة" وفتح الباب ببطء، لكن...

الفراغ وحده استقبله.

أنفاسه تسارعت، بحث في الزوايا، فتح النوافذ الصغيرة، لا أثر.

هبط الدرج بخطوات خفيفة، فتح باب غرفتها، لكنها خالية تمامًا...

السرير غير ممسوس، والهواء فيها جامدٌ كأن أحدًا لم يمر من هنا منذ زمن.

تجمّد في مكانه، ثم سمع صوت خطوات أبيه في الطابق السفلي، فأسرع إلى غرفته وأغلق الباب، محاولًا كتم ارتباكه.

في صباح اليوم التالي,

أشعة الشمس انسدلت بخجل على وجهه موقظةً إياه ,جلس ظافر على الأرض، وقد فرش أمامه الأوراق التي أخذها الليلة الماضية.

ملفّاتٌ، عقود، وصور...

صفقات مشبوهة، وخط والدته الذي لا يُنسى.

بدء يخطّ خطة.

خطة لكشف أبيه...

خطة ليأخذ بثأر والدته، وجده، وطفولته المسروقة.

كان يطوي آخر ورقة حين فُتح الباب.

كانت أميراس.

وقفت في مواجهته... وجهها كان شاحب، عيناها محمرّتان ومتورّمتان، وكتفها يبدو كأنه يحمل ألماً مخفيًا رغم ما غطّته كنزتها.

وقف فجأة، اقترب منها، ثم شدّها من يدها بحذر، يتلفّت يمينًا ويسارًا، وجرّها إلى غرفته وأغلق الباب خلفه.

قال متوترًا:

- "أين كنتِ؟! ظللت أبحث عنكِ طوال الليل... ظننتكِ في السندرة، أو حتى في غرفتك، لكنكِ اختفيتِ تمامًا!"

لم تجبه... فقط نظرت إليه، والدموع تتدحرج بصمت.

أكمل بعدما امسك يدها، وفي عينيه فرحٌ ممتزج بالقلق:

- "لقد وجدتُ ما يُدين أبي... ما يثبت أنه قتل أمي وجدي. لم يتبقَّ إلا خطوة واحدة... وسنعيش بسلام... كما حلمنا."

رفع يده على كتفها... لكنها ارتجفت،تنهدت... تألمت.

نظر إلى موضع الألم باستغراب ورفع طرف كنزتها برفق عن كتفها، فظهر جرح عميق، كأن سوطًا قد نزل عليه بقسوة.

قال فزعًا:

-"من فعل بكِ هذا؟! هذا الجرح... يحتاج خياطة!"

شهقت، وبكت بحرقة...

رأى فيها الطفلة التي عذّبتها الحياة، لا الفتاة التي خدعته بعينيها.

أمسك يدها، وسحبها مسرعًا نحو الباب:

-"سنذهب للمستوصف... هيا."

لكنه حين مرّ بالردهة، كانت بعض النساء من الخدم قد رأوه, ذلك الجرح الكائن بكتفها.

صرخت إحداهن:

- "هذا هو! هو من ضربها! انظروا إلى يدها بيده، والدم على كتفها!"

أوقفه الذهول، فصرخ:

- "لا! لم أفعل شيئًا! أنا..."

وقبل أن يُكمل، كان أبوه قد نزل من الدرج.

وقف كظلّ ثقيل، ينظر إلى ابنه .

قال بصوتٍ خبيث، يقطر تملّقًا:

- "سأوصّلها أنا... هي بمثابة ابنتي."

ثم اقترب منها، ووضع يده على شعرها برقةٍ مريبة.

هنا... تحوّل ظافر لذئب جامح.

أمسك بيد أبيه وأبعدها عنها بعنف، وقال بحدة:

- "لا تلمسها."

ضحك الأب، بصوتٍ متعجرف هازئ، وقال:

- "أمرك عجيب..."

ثم فجأة، ضربه لكمة في صدره، دفعته للخلف.

تقدّم ظافر وهو يئن، ثم صرخ:

- "لن أترُكها."

ردّ الأب بابتسامة ساخرة، وقال:

-"وماذا بعد؟"

اندفع نحوه ظافر

واندلعت جرائها معركه.

صوت الزجاج المُتحطم، تناثر الخشب المُتكسر، دفعات متبادلة...

الرجال من الفيلا اندفعوا يحاولون التفرقة بينهم، النساء يصرخن، والمشهد يزداد توترًا.

نتج عن ذلك:

الأب بخدشٍ طفيف في وجهه. و ضحكات خبيثة

وظافر بحاجبٍ مفتوح، يسيل منه الدم.

تدخّل الحرس، وتم فصلهم.

لكن ذلك لم يمنع ظافر أو عاصم بِك من مواقفهم, ذهب

الاثنان إلى الطبيب في نفس السيارة، صامتَين، غارقَين في

دمَين مختلفَين:

أحدهما... دم خيانة.

والآخر... دم وعدٍ لا يُنسى.

في السياره دار نقاش حاد بين ظافر و عاصم بِك كاد يُنشِب معركة أُخرى ,لكن ما هدأهم كان صوت أميراس المتألمه الصارخ:

-سنموت جميعاً

في المشفى النظرات تطايرت , دموع بكل إتجاه، نظرات توحي بالحقد

نظرات توحي بالقلق

نظرات توحي بالندم

و دموع متأرجحة بين ندب على حظ و خوف من القادم و دموع من الإشتياق و دموع تفيض من الصمت تحت التهدي

قيد الخوف

في مُلحق خلف الفيلا بوقت متأخر من الليل..

فتحت أميراس الباب الخلفي بهدوء، خطواتها فوق الحصى كانت ناعمه كأنها تخشى أن توقظ الأشجار.

يدها ترتجف وهي تمسك بالمفتاح، وقلبها يكاد يخرج من صدرها.

فتحت بابًا صغيرًا من المعدن الصدئ، يؤدي إلى ملحقٍ مهجور، لا يقترب منه أحد.

الداخل كان مُظلم، رطب، وتفوح منه رائحة العفن...

على الأرض وسط الظلام، كان هناك جسد مُكبّل بالسلاسل، ظهره منحنٍ، شعره منكوش إن وُجد، وصدره يرتجف أنفاسًا متقطعة.

كان والدها.

الخادم نوح

رفع عينيه إليها، فيها حزن ودهشة ومرارة.

قال بصوت خافت، كمن لم يتكلم منذ أيام:

- "أميراس... الطعام؟"

هزّت رأسها له بحزن. وأخرجت قطعة خبز متعفنة وبعض الماء، وضعتهما أمامه على الأرض دون أن تقترب.

في تلك اللحظة... جاء الصوت من خلفها.

-"برافو."

كان صوت عاصم بِك والد ظافر، يقف عند باب الملحق، يصفّق ببطء وعيناه تلمعان بقسوة شيطانية.

-"تعرفين تربية الكلاب يا أنت. و لكن إياك أن تنسي...

إن نطقتي بكلمة واحدة، إن خُنتِ ثقتي، سيموت... وإنتِ من وراءه ."

اقترب منها، وهمس في أذنها:

- "ظافر لا يحتاج لمعرفته مكان أبيك و انه مازال حي...

وإلا، ستكون آخر مرة تريه في حياتك."

ثم أدار ظهره، وتركها واقفة بين دموعها ورائحة الألم المُنبعثه مِنها ، ومن سلاسل أبيها.

ذئب في الورقة

———————

في صباح اليوم التالي

جلس ظافر تحت شجرة الجاكرندا في الحديقة الخلفية، مكانه المفضل للتفكير والهروب المؤقت من ضجيج القصر.

أنامله تعبث بجرح حاجبه، وكأن الألم يساعده على استعادة يقظته.

اقترب أحد الخدم، وضع ظرفًا صغيرًا على الطاولة وقال:

- "هذا وُجد عند البوابة... لا يحمل اسمًا ولا ختمًا."

رفع ظافر الظرف ببطء، فتحه بحذر، فوجد داخله ورقة مطوية بعناية.

فتحها... لم يجد اسم مرسل ولا تاريخ، ولا أي شيء واضح.

فقط كلمة واحدة في المنتصف، مكتوبة بخطٍ داكن:

"الذئب."

حدّق فيها، عقله جُمد، لكنه فجأة تذكّر...

—

عودة بالزمن قبل ٥ سنوات,

كان جالسًا مع عمّه عادل في زاوية الفيلا القديمة، يتحدثان عن الأسرار وكيفية النجاة إن حدث ما لا يُتوقّع.

قال عادل وهو يربت على رأسه:

- "لو يوم وجدت مني رسالة بكلمة الذئب... حينها إعلم إن الخطر حول رقبتك."

سأله ظافر بدهشة:

- "لم الذئب و لم ليس مثلاً نسر أو أسد؟"

ابتسم عادل، وقال بعينين ثابتتين:

- "لأن الذئب يتحرك فقط حينما يتأكد... من ثباته أمام فريسته و لن تلمحه إذا أبدا."

قلب ظافر الورقة ببطء... فظهرت جملة صغيرة في أسفلها:

- "الهرب لم يعُد خيارًا...

إنه النجاة الوحيدة.

احذر مَن حولك... خاصةً أميراس."

أغلق الورقة بقوة، وضغط عليها في راحة يده.

رفع عينيه بدهشة ...

رآها هناك في الشرفة، تمسح شعرها من أثر الاستحمام،

وتبتسم له بهدوء، كأن شيئًا لم يحدث.

لكن شيئًا تغيّر داخله...

- "**الذئب... لا يُهاجم إلا حينما يؤذى.**"

لم تكن الليالي كما كانت.

منذ أن استقبل الظرفَ المكتوب فيه "الذئب"، تغيّر كل

شيء.

لم يعد ظافر ينام كثيرًا، ولم يعد ينتظر الحُب كمن ينتظر وعدًا...

بل كمن يستعد للخيبة.

استأذن والده في تحويل المخزن الصغير في نهاية الحديقة إلى "مكان للهدوء"، ووافق الأب بسخرية، غير مدركٍ أنه وهب ابنه زنزانة له تُصنع فيها النجاة للأول.

--

قبع ظافر يرفع الأثقال القديمة بيده اليمنى، والعرق ينساب من جبينه...

يضرب كيس ملاكمة محشو بالرمل... قبضته صارت دامية، لكنه لا يتوقف.

يفتح كتابًا مهترئًا عن تشريح الإنسان، يقرأ باهتمام...

يتعلم كيف يُسقط الخصم، كيف يُمسك السلاح، كيف يخفي نفسه حتى في النور.

في منتصف الليل

يقف أمام المرآة، ينظر إلى نفسه...

عيناه لم تعُد بريئتين.

حاجبه المخيط لا زال يظهر، لكنه الآن علامة "نجاة"، لا "هزيمة".

يمسك الورقة التي كتب فيها خطته:

"الدليل.

النجاة.

الحساب."

ثم يطويها، ويضعها تحت لوح خشبي في أرضية الحديقة

,لتُذكره مراراً وتكراراً عما ينتظره.

- "أنا لم أعد نفس الشخص."

هدوء ما قبل العشرين

في حديقة الفيلا وقبل الغروب بيوم واحد من بلوغه العشرين

كان الهواء ساكنًا، والسماء تميل للذهبي.

جلس ظافر على المقعد الحجري، ينتظرها كما طلبت

في قلبه شك... في عينه حذر... في يده وردة.

تقدمت بخطواتها على الحصى بلطف ، اقتربت... ابتسمت له.

فسقطت كل أسئلته.

نهض دون أن يشعر، مدّ لها الوردة كأنه يتخلص من سلاحه.

قال وهو يتظاهر بالتماسك:

- "تأخرتِ..."

ردّت وهي تنظر لعينيه مباشرة:

- "تأخرتُ لأنني كنت أختار فستانًا يعجبك."

ابتسم كالأبله... و ردتها.

مشيا سويًّا بين الأشجار، تحدّثا عن أشياء لا تعني شيئًا:

اللون المفضل، اسم الطفل لو رُزقا بواحد، ومكان الحفل الذي لم يُدع إليه أحد.

مرّا بجانب النوافير الصغيرة، ثم جلسا قرب البحيرة الاصطناعية.

قال وهو يضحك بخفة:

-كم أنتظر اليوم الذي سنهرب فيه سوياً من هنا و لن يعرف أحد مكاننا أبدا.

سألته:

-"و لم ليس الآن ؟"

رد، وهو يلمس يدها:

-"ليس بعد... غداً. فقط غداً مختلف.

غداً سأكون أنا ، و ليس ابن أبي "[6]

[6] لن يعيش في جلباب أبيه مرة أخرى><

ضحكت، وقالت وهي تضع رأسها على كتفه:

-" و أنا على أتم الإستعداد للهروب معك أينما يكون يا أنت

"

نسي كل شيء للحظة.

نسي "الذئب".

نسي الرسالة.

نسي الجرح في كتفها....

كانا الآن مجرد ولد وفتاة... يتظاهران بأن العالم لا يحترق

خلفهما.

أو من خلفه وحده.

حين كان ظافر في غرفته تلك الليلة أغلق النافذة، ووقف أمام المرآة، ينظر لنفسه طويلًا.

فتح درج مكتبه، أخرج الورق... نظّم الأدلة التي يحتاجها، وضعها في ملف واحد.

ثم كتب على غلافها:

- "إلى الشرطة... بعد أن أبلغ العشرين."

"بقي يومٌ واحد...

وكلُّ شخصٍ في هذا القصر...

كان يستعدُّ لحربهُ بطريقته."

في فجر اليوم التالي من أمام بوابة المحكمة , تمركز ظافر وبخطى ثابتة، اجتاز البوابة الحديدية.

وجهه مشدود، عيناه لا تعرفان التردّد، وفي يده ملفٌ ضخم يحوي كل أوراقه، كل وجعه، وكل انتظاراته.

بعد ساعات من التوقيعات،المراجعات، والأختام الرسمية...

خرج ظافر من البوابة، الشمس تصفع وجهه من جهة، لكن صدره أخيرًا ممتلئ بشيء يشبه الهواء.

-"أنا الآن حر...

أنا الآن وارثُ دمي، لا ظلُّ أبي."

في الفيلا ومن منتصف النهار عند باب السندرة

فتح الباب الخشبي العتيق، ودخل إلى قلب الذكريات، إلى الغرفة التي شهدت بدايات الحب...

ونهاياته.

كانت أميراس تنتظره هناك، بثوبٍ أبيض بسيط، وعينين منطفئتين كأنهما أنهتا البكاء منذ ساعات.

ابتسم لها، رغم خنجر الشك المغروس في قلبه.

قال وهو يقترب منها:

-"كل شيء انتهى...

أعدّي حقيبتك، سنغادر اليوم و الآن."

هزّت رأسها... لم تقل شيئًا.

جلسا سويًّا على الأرض الخشبية، بينهما صندوق قديم فارغ.

أخرج ورقة، وقلمًا، وقال:

-"ما شئتيه إنه لك فقد اطلبي."

ابتسمت، واقتربت منه، واضعةً يدها على يده.

قالت برقة:

- "أنا فقد أردت ولو شيئاً بسيطاً , اخاف من والدك ,اخاف أن يُعيدني لهنا مُجدداً"

قال بصدقٍ أحمق:

-"أنا أثق بكِ."

أمسك القلم.

كتب:

- "أقرُّ أنا ظافر عاصم، بتنازلي الكامل عن كل ما ورثته، للسيدة أميراس..."

ووقّع من تحتها:

ظافر عاصم

بخطٍّ واضح، راسخ... كأن التوقيع سيفٌ، لا اسم.

ناولها الورقة فابتسمت له ، واحتضنته.

لكن الحضن...

كان باردًا.

كان حزينًا.

كان وداعًا.

قال لها وهو يحتضنها:

-"سأذهب معك لأي مكان لكن لا تتركيني ."

وهمس صوته داخله:

-"العناق منها الآن يخيفني..."

ثم شعر بشيء يخترق صدره.

تجمّدت اللحظة.

توقف الزمن.

نظر في عينيها...

كانت تبكي.

قالت بصوت متهدّج:

-"كانتْ نَظْرَتي الأَخيرةُ عَميقةً،

وكأنَّ عَيْنَيَّ تَحتفِظُ بمَلامِحِ وَجهِكَ لأَيَّامٍ طَويلة،

وكأنَّها تَعلَمُ أنَّ اللِّقاءَ مَرَّةً أُخرى سيكونُ مُستَحيلًا...."

سقط جسده إلى الخلف ببطء.

خنجر في صدره.

عيونه لا تصدّق.

أنفاسه تتلاشى.

وسقطت ورقة من جيبه...

فارغة.

إلا من نقطة واحدة في منتصفها.

بعد لحظات ومن خارج السندرة

خرجت أميراس...

عيناها دامعتان وجهها شاحب، تمسح دموعها بطرف كمّها.

أغلقت باب السندرة، وضعت خشبة طويلة تعوق فتحه، ثم جرّت دولابًا قديمًا أمامه...

كأنها تُغلق القبر على قلبها، لا عليه.

نزلت درجات الفيلا...

دخلت على عاصم بيه في مكتبه.

قالت بصوتٍ مكسور لكنه حاسم:

-"المهمّة انتهت, اترك لي والدي...

ودعنا نغادر بسلام."

لا مفر

في الفيلا من مساء اليوم التالي لمقتل ظافر , نزلت أميراس من الطابق العلوي تمسح دموعها من أثر ما حدث في "السندرة".

في يدها ورقة التنازل، وفي قلبها أمل صغير... أنها أخيرًا انتهت من هذا الجحيم.

دخلت إلى مكتب عاصم، ووقفَت أمامه بشجاعة مرتجفة:

-"المهمة انتهت..."

رفع عاصم عينه من فوق الأوراق، نظر إليها بهدوء مرعب.

-"والدك؟"

أومأت برأسها:

-"كما تعاقدنا."

ضحك ضحكة ساخرة، وقام من خلف مكتبه ببطء.

مُقترباً بهدوء وانتزع الورقة من يدها دون استئذان.

قرأها... تنهد بإعجاب:

-"ظافر... يا غبي."

ثم طواها ووضعها في جيبه.

تراجع خطوة للخلف، نظر إلى أميراس من الأعلى للأسفل

وقال:

-"لن تغادري .

تغاضي عن ذلك"

شهقت وهي تصرخ به:

-"وعدتني..."

صرخ أيضاً، وهو يضرب الطاولة بيده:

- "انسي إني وعدتك بشئ!

أنتِ الآن ملكي... بورقة.

وستظلي أسفل قدمي... تماما كما كنتي، واكثر."

اقترب منها فجأة، وأمسك بذراعها بقوة:

-"من هذه اللحظة، ستأتين معي كل اجتماع.

وسترتدين ما آمرك به...

لأن الرجال لن توقّع الصفقات إلا برؤيتك أنتِ."

نظرت له بصدمة، دموعها تنفجر بلا إذن.

صوتها خرج مكسورًا:

- "أتبيعني؟!"

رد ببرود:

- " لا عزيزتي ,اشتري نفسي بحضورك."

صندوق الأمل المغلق

في الملحق بعد عدة أيام اثناء موعد زيارة والدها فتحت القفل بنفسها.

كعادتها، تدخل إليه ببعض الطعام - خبز يابس وماء ملوث - لكن قلبها كان بيقولها: هناك شئ مختلف اليوم .

الضوء خافت، الرائحة خانقة...

نادَت عليه بصوت مرتجف:

-"ابي...؟"

لم يرد.

تقدّمت ببطء مقتربة من الزاوية.

كان جسده هناك، ممدّدًا...

لا حركة لا صوت...

لا حياة.

- "ابي؟!"

سقط الطعام من يدها وركضت ناحيته، لم تجده يتنفس.

عينيه مفتوحتان نصف فتحة، ووجهه هادئ بطريقة تخيف.

صرخت، ولكن لا أحد يسمع في هذا المكان المنسي من الفيلا.

ركعت جواره تبكي وتشهق، حتى انقطعت كل دمعة، ولم يبقَ فيها غير نار

"الرسالة الأخيرة"

_____

دخلت غرفتها، أغلقت الباب بقوة بالمفتاح.

كتبت رسالة بخط يد مرتجف غاضب حزين، وجملة بعد جملة... بدأ الحبر يتحول إلى دم.

-"إلى عادل...

أخوك قتل امراته، وقتل أبوه، وقتل ابنه...

والآن يُريد قتلي.

عندي مستندات تدينه، احفظها سراً في السندرة...

ولتصدق موت ظافر هذا ما أراد أن يوصله لك:

فاستمع لما يُوحى."

وضعت الرسالة في مظروف، وأعطتها للخادمة وقالت:

- "الآن اذهبي للبريد , ارسلي على ذلك العنوان هذا الجواب ولا تعودي خالية الوفاض"

الظل القادم

في غرفة أميراس بعد منتصف الليل

قبع سكونٌ لا يُحتمل...

البيت كله نائم، أو يتظاهر بالنوم.

أميراس تجلس على حافة سريرها، تنظر إلى السقف بعينين لا تنامان.

النافذة نصف مغلقة... الستارة تتحرك بخفة مع نسمة الليل، لكن لا هواء في الخارج.

اطفأت المصباح، وتمددت... تحاول أن تهرب من الحياة، حتى بالنوم.

ظهر صوت خافت...

أشبه بحفيف جلد يجرّه شيء على الأرض...

قريب.

جلست بقلق فجأة.

ثم طرقة واحدة على الباب.

شهقت واقتربت بحذر تنظر من ثقب الباب... لكن لا أحد.

فعادت خطوتين للوراء...

لكن كسر مفاجئ للزجاج!

جعل النافذة تنفجر إلى الداخل، وشظايا الزجاج تتناثر في كل اتجاه.

فصرخت عن نفسها

صوت الخطوات عاد ... بطيئة... خشنة...

ثم صوت همس... كأن أحدهم يزحف على البلاط.

-"أميـــــراس..."

صوت غريب، خشن، كأن حنجرته صدئة.

ركضت نحو الباب... لم يكن الباب يفتح.

المفتاح غير موجود في الأساس.

الستارة ظلت تتحرك بأشكال تقترب للشياطين...

دخل منها مخلوق طويل، يرتدي قبعة سوداء، وجهه لا يُرى...

لكن يده تحمل شيئًا لامعًا، كأنه شفرة أو سكين.

ظلت تصرخ و تركض في الغرفة تختبئ خلف السرير.

صوت كان حاداً كفاية:

قرب رأسها من الأرض... ظهر الحذاء الخاص بالظل أمام وجهها مباشرة.

هجم عليها من الخلف ...

فأصابها بجرح خفيف في ذراعها...

لكن!

باب الغرفة فتح فجأة بعنف!

رجل انقض على المهاجم...

عادل.

فضربه من الخلف طارحاً إياه أرضًا، تعاركا بعنف حاول على إثرها القاتل أن يهرب،لكن عادل وثب فوقه،ضربه على وجهه، على صدره، على رأسه...

وأخيرًا... سقط القاتل مغشيًا عليه.

غرقت الغُرفه عقبها بصمت ,صمت قطعته..

أميراس التي تتكوّم في الزاوية، تنزف دمًا، وتبكي بهستيريا.

ركض عادل نحوها جاثياً على ركبتيه:

-"أميراس أنتي بخير , أنتي بخير ..لا تقلقي!"

صرخت وهي تبكي:

-" قتل الكل... حتى ظافر!

الآن يُريد قتلني "

- "أميراس استمعي لما اقوله جيداً , إن تعرفين مكان أدله ضد عاصم أريدها ..اخرجي كل شئ الآن , لأجلك و لأجل ظافر وكل من تورط عاصم بأذيته"

مسحت دموعها بعدما هدأت قليلاً :

- "كل شئ بالأعلى معه.

في السندرة...."

"ما بين الأرض والسماء"

_____

على الدرج المؤدي إلى "السندرة" في الفجر

خطوات أميراس على السلم الخشبي كانت... مرتعشة مما مرت به للتو ، لكنها ثابتة لبيان الأدله.

وراءها عادل، يراقب ظهرها وكأنها تحمل الجواب الذي ظلّ يبحث عنه منذ سنين.

يدها كانت ترتجف وهي تفتح الباب.

تخاف مما ورائهما

الهواء كان ساكن... المكان كما هو.

لكنّه مختلف.

الخشب يُصدر أنينًا تحت أقدامهم...

كأن الأرض تئنّ من الذكرى.

تشكي من مُجرم دخل للتو

دخلت وحدها، طالبه من عادل الانتظار في الأسفل.

داخل السندرة

وقفت أميراس وسط المكان، تنظر إلى البقعة التي قُتل فيها ظافر.

الخشب مُبقّع... لا أحد نظّف الدم.

همت بفتح الصندوق الذي خبأت فيه الأوراق...

لكن فجأة...

الصمت انكسر.

صوت ظافر اتى... من كل مكان:

> "أنا من أوقف الصفقات.

أنا من عطّل السيارات.

كنت أحاول... أقاوم.

لكن أبي وجد شيئًا أقوى مني..."

"وجدكِ."

الهواء دار من حولها.

و معه غبار الغرفه

تلفتت ، تبحث عن مصدر الصوت، لكنّه من كل مكان.

كان وقع كل شئ ثقيلاً عليها تبعاً فوقعت على الأرض،

تبكي وتصرخ:

- "كنت مجبرة... كنت اهدد!

كنت ادفع ثمن سكوتي كل ليلة!"

الضوء بهت من حولها...

الظلال راحت تتمايل على الجدران.

ثم ظهر أمامها، ببطء...

شبح ظافر.

نفس الوجه.

نفس العيون.

لكن... بلا حياة.

نهضت واقتربت منه حاولت أن تمد يديها لتلمسه...

لكنها يداها مرت من خلاله.

- "ظافر... كنت ادعي أن تعود لتنتشلني منه...

كنت اندم كل يوم...

كل يوم كنت اتمنّى أموت... لأتحرر."

تقدم خطوة منها، ووضع كفّه الشفّاف على وجهها...

الغريب أنها شعرت بها ..

جعلها ذلك تنهار، تبكي كما لم تبكِ من قبل.

قال بصوته الحاني:

- "أنا, لن استطيع العوده...

لكن أنتي...

تستطيعين القدوم."

نظرت له، صدمة في عينيها...

كأن شيئًا داخلها استيقظ فجأة.

ببطء...وبدون تفكير

سحبت الخنجر من الصندوق نفسه.

الخنجر الذي قتل ظافر.

لمسته ..و قبلته كأنها تقبل ظافر.

نظرت إليه، تبتسم باكية.

- "أنا قادمه..."

ثم...

غرست الخنجر في صدرها.

ورقة قديمة طارت في الهواء...

سقطت فوق الدماء...

عليها توقيع:

"ظافر عاصم"

"الحقيقة ظهرت"

بينما عادل جالس في صمت، عيونه لا تنام، قلبه مستنفر.

فجأة...

سمع صوت خَبطٍ مكتوم على الأرض... يأتي من فوق.

نهض بسرعة...

اتجه إلى السلم المؤدي إلى "السندرة"، يشعر بأن الهواء أثقل من المعتاد.

الباب... كان مفتوح.

صعد ببطء... كل خطوة تقربه من شيء يعرف أنه لن يحتمله، لكنه لا يملك ترف التأخير.

--

دخل.

الهواء ساكن، رائحة غريبة تملأ المكان،

ثم... يتجمد من هول المنظر..

من أمام عينيه:

جثة ظافر ممدّدة على ظهرها

جثة أميراس بجانبه، يدها تشير بصمتٍ واضح نحو جهاز "الفونيك" الصغير على الرف.

ركع بجوارها... وقلبه يتمزق.

مدّ يده، يأخذ الجهاز .

[تسجيل صوتي صوت عاصم بوضوح]

- "أنا قتلتها... زوجتي،

وأبويا، وابني... وحتى نوح .

كلهم كانوا خطر...

من يعترضني لابد أن يموت."

صوت صفار جعله يتوقف.

اغمض عادل عينيه، وهمس:

-"كفى..."

ثم توجه إلى الصندوق الخشبي، يفتحه...

وجد بعض المستندات:

صفقات الكيماويات، الأدوية الفاسدة، تنازلات، إثباتات... كل شيء.

حين ظهر الصباح من داخل مكتب عاصم

كان يجلس يراجع أوراقًا، حين اقتحمت الشرطة المكان.

تحدث الضابط بصوت حازم:

- "أنتَ متهم بقتل زوجتك، ووالدك، وابنك، ووالد أميراس...

وبالضلوع في صفقات كيماويات وأدوية فاسدة."

حاول المقاومة، لكن الأدلة دامغة.

نظر حوله، كمن لا يصدق أن النهاية جاءت.

فصرخ:

- "أنا فوق القانون!"

ردّ الظابط بهدوء:

- "لكن الحقيقة... فوقك."

المشهد كان هادئ، مهيب.

خمس قبور متجاورة:

ظافر

أميراس

والدها

والدة ظافر

جد ظافر

عادل وقف بينهم، ينظر إلى التراب الذي يُهال على أحبّائه، دموعه لا تنزل... لكنها تُسمع.

جثى على ركبتيه أمام القبر الأخير، وهمس:

-"يا ظافر...

كنت أذكى منا كلنا، لكن الحياة كانت أقسى من حلمك.

الحقيقة ظهرت...لكن ثمنها كان أنت."

ثم وقف وزرع وردة بيضاء على كل قبر، ومشي وحده...

صامتًا، لكن صوته بداخله يصرخ:

- "لن أترك إرثكم يُدفن."

عادل وقف وحده، ناظرًا إلى القبور الخمسة.

قال كلمته...

- "لن أترك إرثكم يُدفن...

وصمت.

لكن الصمت لم يدم طويلًا.

ضحكة خفيفة...

ضحكة أنثى...

طفولية...

لكنها لا تشبه الطفولة.

التفت ببطء...

كانت تقف خلفه، على بُعد خطوات.

سديم.

أخت ظافر...

شعرها منسدل كالموج، عيناها ساكنتان كسماء قبل العاصفة.

ابتسمت... مجرد ابتسامة صغيرة.

لكن عادل فهمها.

نظر إليها...

لم يردّ الابتسامة، بل بادلها بنفسها.

لا كلمة خرجت.

ولا حركة زادت.

لكنها كانت نظرة "الذئب"...

الشفرة القديمة التي كان ظافر يثق بها...

وتركاها الآن في يد من بقي.

سديم... وعادل.

انتهى؟

لا.

الهواء تحرك.